ISSN: 2321-7928

الدرّ اليتيم

(للشيخ ماهر القادري)

﴿9﴾

ترجمة من الأردوية: د. عظمت الله[1]

إعلان الحق

يقوم أساس منصب النبوة وواجبها على إعلان الحق وإظهار الصدق والدعوة إلى الخير والهدى. ولقد كُلف محمد صلّى الله عليه وسلّم أيضًا بإكمال هذه المهمة. وإنّ هذه المهمة دقيقة وصعبة أيضًا بقدر ما هي مهمة ومرموقة عالية، وتُواجه المشاكل والعراقيل والخلافات في كل خطوة، كما توضع الأشواك في طريق النبي الكريم. ويُلقى التراب على رأسه أيضًا. كما يضطر ليسمع السبّ والشتم بسبب إعلان الحق، ويدمى جسده أيضًا جراء تعرضه لرشقات من الحجارة. لو كان هناك شخص يحبّ دنياه وهوى النفس لتخلّى عن مهامه خوفًا من هذه المشاقّ والمتاعب، لماذا أُعرض حياتي للمتاعب دون جدوى، وإذا لم يأت الناس إلى طريق الحق والهدى دعهم وشأنهم، لماذا عليّ أن أتحمّل المتاعب.

ولكن الله تعالى يمنح قلب النبي والرسول قوة وقدرة خاصة على الصبر والعزيمة والتوكل. فلا يمكن لأيّ معارضة أن تمنعه عن إعلان الحق. في حين يقع في طريقه جبال وأودية من الصعوبات وبحار من المصاعب إلا أنه يجتازها بثباته وعزمه ويسحقها سحقًا. حتى أنّ حدود السيوف وسنان الرماح ورؤوسها ونصل السهام لا تقدر على منع النبي والرسول من الدعوة والتذكير، حتى يتقاطر الدم من جروح

[1] أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي

السيف الحديثة ولسانه يحمد الله ويثني عليه كترجمان للحق. وعند بعثة النبي، كانت البيئة شديدة الظلمة والكآبة وما يحيط بها فاسد للغاية، والمجتمع في أسوأ حال من الخراب. ولقد ترسّخت الشرور والجرائم منذ القرون. وأصبحت الخطايا من عاداتهم. وفي كل مكان ظلمات بعضها فوق بعض. وفي مثل هذه الظروف، لا يمكن لأحد ليتجرأ إلا النبي على مهام الإصلاح والتصحيح ألا وهو الذي يتحلى بالصفات القدسية، ينال من الله تأييدًا وعونًا وهداية.

وفي أحد الأيام، صعد محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى جبل الصفا ونادى الناس كأنه يريد إعلان خبر خاص وإبلاغهم بأهم الأمور. فمن سمع هذا النداء، تدفق نحو الصفا. وقال البعض للبعض: يا أخي، لا ندري، لماذا ينادي محمد بن عبد الله، الناس اليوم، من أعلى جبل الصفا. هيأ بنا لننظر ما الخطب! و... وإنّ محمدًا... الصادق والأمين الذي لا نظيره له في الصدق والتواضع والجدية .... لقد دعانا ليخبر بأمر خاص.

جاء واحد، وصل آخر، وراح العدد يتزايد حتى جمع حشد كبير من بينهم شيوخ قريش الذين قد شهدوا كثيرًا من السرّاء والضرّاء في زمنهم. كما كان هناك شباب تنقصهم الخبرة، لكن عزائمهم عالية وفي هممهم حماس. وكان هناك أطفال أيضًا، حياتهم في بداية التكوين. وظن البعض أنّ محمدًا نادى من أعلى الجبل بهذا الاهتمام فربما يكون هناك نبأ عن هجوم عدو فلا يجوز أن نذهب بدون سلاح هكذا، بل يجب أن نحمل معنا السلاح. وكان أحدهم يأكل التمر في السوق فخرج وفي يده تمر وطراوتها على شفتيه. ونظرًا إلى الكبار، رافقهم الأطفال أيضًا.

لقد وقف محمد صلوات الله وسلامه عليه، على رأس الصفا بكل وقار واتزان وإحساس بالمسؤولية، وكان قد أحاط به جمعٌ من قريش. وكانت أنظار الجميع تتجه إلى وجه محمد، حيث لا يدري أحد ماذا سيقول. لأنّ محمدًا لم يجمع الناس هكذا من ذي قبل، وإنّ هذا لأمر جديد تمامًا. ربما أنه يقصد بالإخبار عن حدث مهم. كان

الجمع بأسره منصت كأنّ على رؤوسهم الطير. قال محمد صلّى الله عليه وسلّم:

انظروا، أنا واقف على رأس الجبل، وأنتم تحته، وأنا أنظر إلى كلا الجانبين من الجبل، فلو قلتُ إنّ جماعة مسلحة تُرى قادمة على بعد، لتهاجم مكة، فهل تصدقون هذا؟

رفع صوت من الجمع. هتف الجميع بصوت واحد:

بلى، بالتأكيد، سنصدقك، وكيف نكذب رجلًا صالحًا وصادقًا مثلك..

ازداد الجمع قلقًا بحيث أنهم أرادوا أن يقول محمد بسرعة، كل ما يريد أن يقول. إذ كان قد أثار خبر هجوم الجيش المسلح اضطرابًا ودهشة لديهم. لأنّ قريشًا لم تسمع شيئًا خاطئًا من لسان محمد. وكان كل إنسان يقرّ بصدقه من أعماق قلبه. حتى ظنّ الناس بأنّ محمدًا لن يمكنه أن يقول شيئًا مزيفًا من قلبه، ولا شك أنّ عصابة من اللصوص قادمة لغزو مكة. والآن، ربما يخبرهم محمد بخطة لحماية أنفسهم من هؤلاء المهاجمين. لأنه ليس بصادق وصالح فحسب، بل إنه لشجاع وجريء وذكي للغاية.

بعد ذلك، قال:

لم يكن هذا إلا مثالًا للإفهام، فعليكم أن تؤمنوا بأنّ الموت آتٍ إليكم وأنكم ستمتثلون أمام الله. يا معشر قريش! أنا أرى الآخرة كما أنتم ترون الدنيا وما فيها.

وكان هذا الإعلان بمثابة رسالة فريدة وغريبة تمامًا لعبدة الأصنام. لأنه لم يخطر ببالهم قط بأنّ الآخرة شيء وستحاسب أعمال الحياة الدنيوية في الآخرة، وكان شعراؤهم قد غرسوا في عقولهم أن:

ما هذه الخرافة بأنّ الجميع سيبعثون بعد أن توارت أجسادهم في التراب؟ إنه لحديث المجانين.

وكان أبو لهب راكبًا حماره، فرمى التراب بعصى من النخل وقال: هل تم إزعاج هذا الحشد الكبير من الناس بالحديث عن هذا الأمر البسيط. وعاد الآخرون إلى بيوتهم،

وهم يتهامسون فيما بينهم: ما هذا الخطب لابن عبد الله، إنه تحدّث عن أمر بعد أنّ جمع الناس فجأة، لم تسمعه مسامعنا حتى اليوم.

قال أحدهم: فهل نعتبر محمدًا كاذبًا! قال الآخر: لم يسمع أحد عن هذا وذاك من الكلام حتى اليوم.

أنا لا أُكذّب محمدًا، من يمكنه أن يتهمه بالكذب، فهو الصادق الصدوق... لكن يا أخي! في اعتقادي بأنه قد أصاب في عقله شيء من الخلل أو قد لامسه شيطان، أو ربما أنّ أحدًا من أعداء بني هاشم قد سحره. لذا بدأ حفيد عبد المطلب النبيل الأمين يتفوّه بمثل هذا الهراء. أجاب شخص آخر وهو يسير في طريقه.

مِنْ كل شخص أحاديث ونصائح، وكانت التأويلات جارية بشأن رسالة الحق وإعلان الصدق الذي قام به محمد، كما ثمة تكهنات وأفكار وآراء خبيثة. إذ يقول بعض عباد الله أيضًا، أيها الإخوة! لا يليق بنا أن نضحك على كلام مثل هذا الرجل الصادق والصالح. لأنه لم يقل شيئًا إلا بعد أن فهم الأمر. وليس من طبع الحكماء أن يصفوا رجلًا صالحًا وفاضلًا بأنه مجنون ومسّه الشيطان. وإنّ القرارات المتسرعة ليست بصائبة، لذا يجب دراسة وفحص أمر الواقع بغاية من الدقة.

بعد إعلان الحق من جبل الصفا، بدأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو الناس إلى الله علنًا، وكان ينشر رسالة الله في الأحياء والشوارع والأسواق والدوارات. ناهيك عن مكة، كانت هذه الرسالة غريبة وغير مألوفة تمامًا على مسامع سكّان البلاد العربية بأكملها. وكان يشمئز الناس من أحاديث الخير والهدى، وكانت الأحكام التقليدية والمعتقدات الموروثة تمنعهم من قبول الحقيقة! بألا تتركوا دين آبائكم لمجرد اتباع كلمات محمد بن عبد الله، ولم يكن آباؤكم وأسلافكم حمقى، بل كانوا أكثركم ذكاء وبصارة. بأنهم لم يختاروا هذا الطريق إلا بعد تفكير عميق. وليس من النبل أو العرفان بالجميل أن تعرضوا عن الآلهة التي لبّت احتياجاتكم لقرون والتي كانت نافعة

لكم في الأوقات الصعبة. وإنّ الرجال الشجعان لهم قول فاصل، بحيث إذ قال رجل كبير أو صالح قولًا، فظلوا يحترمون عظمته طوال حياتهم. لقد عرقلت هذه المفاهيم والخرافات وصول صوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى قلوبهم.

ومن هم أوائل العباد الصالحين الذين حالفهم الحظ في اعتناق الإيمان والإسلام؟

(1) أسلم أبو بكر بن أبي قحافة أولًا من بين الأحرار (2) وعلي بن أبي طالب من بين الأطفال (3) وخديجة بنت خويلد من بين النساء (4) زيد بن حارثة من بين المماليك (5) وبلال الحبشي من بين العبيد.

ظهر الروح القدس في غار حراء، والذي كان يأتي برسالة الله ووحيه. كان الله تعالى يهدي عباده في كل خطوة.

وذات يوم، جاء الحكم الرباني بحجج وآيات جلية: "وأنذر عشيرتك الأقربين". وامتثالًا لذلك، إنه دعا أقاربه وأصدقاءه المقربين إلى مأدبة طعام. والمأدبة بسيطة، خالية من التصنع والتكلف، إلا أنها تميزت بالتواضع والاحترام التام للضيوف. ولم يكن من بينهم إلا بنو هاشم. وبعد أن فرغ الجميع من الأكل والشرب، أراد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يشرح غايته أمامهم. ولكن أبا لهب الذي كان شديد البصيرة، فهم بأنّ محمدًا لم يجمعنا على وليمة إلا لسبب وجيه، إذ ليس هناك عرس ولا احتفال ولا عيد. فإنّ لهذه الدعوة غرضًا وغاية. وإنّ محمدًا ليس شغله الشاغل في هذه الأيام إلا مهمة واحدة وهي آمنوا بالله الواحد، واتركوا عبادة الأصنام، وافعلوا الخير، واجتنبوا الشر، وأنكم لتُبعثن جميعًا أمام الله ذات يوم، فافعلوا خيرًا ما لذلك اليوم. فإنه سيخبركم بهذا الكلام اليوم أيضًا. ولذلك، لم يدع أبو لهب أحدًا ينطق ضمن سلسلة الأحاديث التي بدأها ذلك اليوم. حتى لم تسنح فرصة لمحمد أنْ يصرح بشيء.

وإنه استضاف مأدبة طعام من جديد في الليلة الثانية، وفي ذلك اليوم دعا أقرباءه إلى الإسلام، وأبلغهم رسالة الحق. ولم يكن هناك فرق استثنائي بين هذه الدعوة إلى

الحق والدعوة العامة. وكان يقول للغرباء نفس الكلام الذي كان يقوله لأصحابه، وكانت رسالته واحدة في كل مكان سواء كان ذلك تجمعًا للأغنياء أو للفقراء، كما لا تُميّز النسمات الباردة بين أجساد الأغنياء والفقراء، وقطرات المطر في الحقول بين الأغنياء والجائعين، ولا يميز ضوء القمر بين القصور والبيوت والأكواخ. وعلى هذا المنوال، لا يمكن أن تتحمل دعوة النبي إلى الحق، أي تمييز أو تخصيص.

تكذيب الحق

تمثّل كل من العداوة العائلية وديانات الآباء والأجداد والتصورات الموروثة عرقلة تحول دون قبول الحق. فيما يقع أصحاب الرؤى الثاقبة المتميزين أيضًا، فريسة لخطأ الاعتقاد بأنّ التقاليد الجارية منذ فترة زمنية، صحيحة ومباحة، إذ يريد الناس أن يقيسوا أمور الحق والصدق بموجب معايير تختص بمحبة الآباء واحترامهم. وإنّ هذا الضُعف الذي يعتري على طبيعة الإنسان يشكل عراقيل وثغرات في قبول الصدق، ويواجه معظم المصلحين والدعاة مثل هذه العقلية غير المناسبة بكثرة.

عندما أعلن سيدنا إبراهيم عليه السلام عن دعوة التوحيد بكل قوة، فغضب الشعب الذي يعبد القمر والنجوم والأصنام من هذا الأمر، وقال: يبدو أنّ ابن آذر هو أذكى وأصدق من أسلافنا أيضًا. هل كان الناس بهذه المكانة والشخصية العظيمة في جهل تام. هل علينا أن نترك الطريق الذي سلكناه لقرون بسبب ما قاله إبراهيم. وسخِر الشعب كله من سيّدنا إبراهيم عليه السلام، وكذّبوا رسالته، حتى كان أفراد عائلته أنفسهم في مقدمة هذه المعارضة. وحدث نفس الحدث مع سيدنا موسى عليه السلام أيضًا. إذ عارض الشعب الذي كان فرعون إلهًا لهم، سيدنا موسى معارضة شديدة. ولقد أصيب هؤلاء الناس بمرض الحب لصالح الملكية. ومن يملك التاج والعرش يدّعي بأنه إله. ويكون هناك سجود في بلاط الملوك، وكانت المخلوقات التي أصيبت بنفوذ الطبقة المتوسطة، لا تعتبر الملك ظلًا لله فقط بل إلهًا.

وإنّ الشعب الذي واجهه سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، يفوق على الأمم السابقة في عبادة آبائهم وأجدادهم بحد كبير. فلما سمعوا الصدق والحقيقة ضد معتقداتهم القديمة، فأقدم الشعب كله على معارضته، حتى كان عمه أبو لهب زعيم أعداء الإسلام وخصومه. وكان شغل هذا الرجل سيئ الحظ الشاغل ليل نهار أن يرافق النبي أينما يذهب فإنه يصل إليه، فلما يعظ الناس ويعلمهم دورس الحق والصدق ويدعوهم إلى الله وإلى الصلاح والخير، فكان أبولهب يعارضه. ويقول لقريش: أيها الناس! لا تتركوا دين أجدادكم بمجرد سماع حديث ابن عبد الله. إنّ ابن أخي (لا سمح الله) قد انحرف عن الدين. فكيف لنا أن نترك آلهتنا التي أعانتنا في كل محنة. هل نكذب الأصنام التي كانوا يعبدها أجدادنا منذ قرون، وذلك بسبب حديث هذا الرجل الوحيد. لا يمكن أن يحدث هذا، كلا، والله لا يمكن. وما دمتُ حيًا فلن تُنكس رايات عظمة أصنام اللات والمناة ونصر وهبل. ونعم، اسمعوا أنّ محمدًا يخوّف الناس بعذاب الآخرة كثيرًا، وأنا لستُ أفهم، ما شر هذه الآخرة؟ هل يمكن لأحد أن يعيش مرة أخرى بعد الموت؟ يا له من جهل! أيها الأصحاب! اسمعوا كلمة واحدة، وهي قصارى القول، كيف يُمكننا قبول الحقيقة غير المرئية، نعم، نحن لا نصدق هذا الأمر إلا إذ أنه جعل إلهه ليُخاطبنا. وإذ لا يحدث هذا، فعلى الأقل يجب أن تأتي أصوات من السماء قائلة إنّ ابن عبد الله قد أرسله الله، ويجب أن يُؤمن العالم بكلامه.

وهذا لا يقول أبو لهب وحده، بل تقول القريش كلها، إنّ هذا محمد، أيُّ نبي هذا بالله، الذي يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق مثلنا. ولديه زوجات وذريات، وقد ربطته حاجات الدنيا أيضًا، بينما كان ينبغي أن يُعطى منصب النبوة لرجل غني أو شيخ قبيلة من مكة أو الطائف. إذ لا يوجد حتى حصير ثابت في بيت محمد بن عبد الله. ويجوع فيه أهله لأيام كثيرة! فماذا سنستفيد من قبول مثل هذا الشخص الفقير والمفلس نبيًا؟ وإنّ معظم الناس الذين قبلوا محمدًا إمامًا، إنهم فقراء وقلقون على معيشتهم. ولايوجد لدى بعضهم حتى ثوب ليغطي جسده. فهل ننضم إلى جماعة محمد

لنصبح مثلهم. يا سيدي! إذا أصبحنا أصحاب معتقدات ابن عبد الله ونحمل آراءه فمعناه أن نقبل معارضة قريش جميعًا، وأن نقطع علاقاتنا مع أحبائنا وأقاربنا، فهذه التجارة ستكون باهظة الثمن، بل إنما تنعدم بسببه الصلات.

بينما يقول بعضهم للبعض: لا شك في أنّ محمدًا هو سليم وصادق وأمين، إنه عاش بيننا أربعين عامًا، ولم يصدر عنه شرٌ حتى اليوم، ولا يمكن لأحد أن يمسّ شرفه، حتى لا يوجد مثله رجل شريف، عفيف وصادق في جزيرتنا العربية، إذ تشهد كل من شوارع مكة وقمم القبيس وصخور الصفا وفناء الكعبة، بصلاح أعمال محمد بن عبد الله هذا. وكان كل كلامه حتى الآن جيدًا ومحمودًا، ولكنه منذ أيام، بدأ يسيء إلى أصنامنا، وذلك ما لا نحبه.

ولكنني أقول: إنّ محمد بن عبد الله ضد أصنامنا دومًا. قال قرشي.

لا، ليس الأمر كذلك. ـــــــــــــــــــــــــــــــ أجاب الآخر:

يا صاحبي! أنت من سكان الأماكن التي تسودها التفاؤلات، واعذرني على قصر نظري، لكن انظروا إلى حياة محمد الماضية نظرة ستتضح حقيقة الأمر، وسيتعين عليك أن تقبل أنني صادق في القول. قال الرجل العجوز:

حسنًا، إذن لا بأس، قولوا شيئًا. كأنك تجعلني أقبل شروط النكاح. أجاب الآخر.

تُعلم أفكار الشخص بأفعاله وأعماله وسلوكه وحياته. فهل رأيت محمدًا في طفولته بالقرب من صنم، (السامع، يهزّ رأسه بالنفي). وفي شبابه، حتى اليوم الذي أعلن فيه محمد على جبل الصفا، لم نجده منجذبًا إلى الأصنام أي انجذاب. (ثم هزّ رأسه نفيًا). مما يعني أنّ محمدًا أعلن الآن بصراحة لكنه في الواقع كان دائمًا ضد الوثنية عمليًا. وإذا كنت لا تعرف فاسمح لي بأن أخبرك. ذات مرة، دعا زيد بن عمرو بن نفيل محمدًا إلى مأدبة، وعندما حضر أمامه طبق اللحم، فإنه سحب يده على الفور قائلًا إنني

لا آكل اللحم المذبوح على الأصنام والمذابح. إنما أنا آكل لحم حيوان ذُبح باسم الله. فنحن لقد فهمنا في ذلك اليوم أنّ هذا الرجل سيظهر يوما ما. يا صاحبي! لقد كان ابن عبد الله هذا ضد عاداتنا ومجتمعنا وحتى أعيادنا وطقوسنا. وفي السنوات الماضية، كم أقيمت من محافل الغناء والترف.

وكان يرقص الكبار في التسعين على غناء ورقص الجارية رفادة من الحصين. وأبعد عزف بنت عاصم على الدفّ النوم عن العيون. شاركت مكة كلها في هذه الحفلات، ولكن لم يُرَ حتى ظِلُ محمد هناك. وإن شُرب الخمر مهنة موروثة لدينا نحن العرب، ولا نستطيع قضاء ليلة واحدة دون كأس من الخمر، ولكن كم يُر محمد بن عبد الله قط في أي حفل من حفلات شرب الخمر. وأنا أقسم بآلهتنا أنّ محمدًا لم يلمس كأسًا من الخمر حتى يومنا هذا. فأي نتيجة تظهر؟ حبذا لو أنت شرحت شرحًا ما. (صوت)، كما أنّ جَملين وجَملين يصنعان أربعة جمال. لا يمكن أن يكون أقل من هذا ولا أكثر. فعلى هذا المنوال، إنه من الحقيقة الثابتة أنّ محمدًا كان معارضًا لديننا وحضارتنا ومجتمعنا ومحيطنا دومًا. ولا تعجبه حضارتنا على الإطلاق. لقد كانت حياته مختلفة عن حياتنا جميعًا. ما هذا الاغتراب والمعارضة والاشمئزاز والبعد والكراهية في حين إنه يعيش فينا، فهزت الرؤوس الكثيرة موافقةً على كلام القائل: إنك على الحق.

لقد هزّ سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، قصور الكفر وأروقته برفع شعار "لا إله إلا الله". وأينما وصل صدى هذه الكلمة، بدأت أركان الشرك والظلم ترتجف. إذ ثار أبو جهل وأبو لهب غضبًا قائلين إنّ هذا اعتداء على سيادتنا. وارتعش أبو سفيان قائلًا إنّ هذا التحدي موجه لقيادتي، كما خاف أولئك الذين يفتخرون بنسبهم وعرقهم ودمهم ولونهم، بأنها لضربة على أصنام كبريائنا ونخرنا النسبي. ولقد تعرّق الكهنة والرهبان والسحرة والكهنة خوفًا من أنّ كلمة التوحيد هذه لقد عرّضت حرمتنا الدينية للخطر. حيث خاف عبدة الذات وعباد الشهوات من أنها لجبهة أقيمت ضد الشهوات. ستتحطم

جميع دعائم ملذاتنا الحسية، وستصبح حياتنا المترفة بلا طعم ولا سرور. كل من ازداد شره، ابتعد وانحرف عن سبيل الصلاح، كان قد ازداد خوفه أكثر فأكثر. فما لبث أن رفع اسم الإله الحقيقي حتى ارتجف كل رب مصطنع وإله زائف ومعبود مُفترى.

كانت قريش تسافر إلى مكة واليمن والشام والبلدان الأخرى لغرض التجارة، حيث أنهم كانوا يتحدثون عن نبوة محمد ورسالته. فكان المستمعون يغرقون تلقائيًا في التفكير، وبدأت قلوبهم تشعر، كأنّ هذه الثورة تتجه نحونا أيضًا، ولا نستطيع أن نبقى خارج حدودها.

رغم كل هذه المعارضات والصعوبات والتنفر، كان نبي الله الصادق يُعلن عن الحق. ولم يكن من الممكن أن تُضعف أي معارضة عزيمته الراسخة ولو بقليل، وكانت شخصيته عبارة عن جبل هائل من الصبر والثبات والحق والصدق. وقد ثبتت كل هذه العواصف دون جدوى، وظلّ مصباح نبوته مضيئًا حتى في أحضان العواصف. وحتى في التيار العاصف، كانت نبات صدقه ينمو. وكان قد قُدِّر له الفتح والنصر.

ورغم المعارضة، كانت قريش تعاني من القلق الشديد وضيق النفس، وكان ضميرهم يضحك عليهم قائلًا: أيها الحمقى، بأيّ أساس، أنتهم تكذبون اليوم، الشخص الذي صدقتموه منذ صغره، ولم تسمع أي أذن من لسانه زورًا ولا باطلًا، هل من المعقول أن يُكذّب رجل فجأة بعد أن صدق أربعين عامًا بشكل دائم، وذلك ليس لأجل أي فائدة في الدنيا ولا لأجل نفع شخصي! إنه لا يريد منكم مالًا وثروة، ولا زعامة ولا ملكية. إنما هو يريد أن يجمعكم على كلمة واحدة وهي كلمة التوحيد فقط. ولكن عندما تخطر على البال معتقدات الآباء وعادات الشعب وتقاليدهم، فيظل هذا الصوت من الضمير مكبوتًا.

طلبت قريش بالإجماع، من محمد رسول الله ﷺ ما يلي:

(1) بما أنك نبي الله الحقيقي، والله يتقبل كل ما تقوله، فاسأل إلهك أن يزيل الجبال التي تقف أمام مكة، والتي أحاطت بالمدينة وغطتها، ليكون هناك فضاء

مفتوح حول مدينتنا.

(2) يا لها من حظ يحظى به أهل العراق والشام بأنّ الأنهار تجري في بلادهم، مما جعل أراضيهم خصبة. ولتدع ربك أن تجري بعض الأنهار في أرضنا، أيضًا.

(3) وأنت تقول بأنّ الموت والحياة بيد الله، فالتمس إلهك أن يحيي آباءنا وأجدادنا، ولتعلم أن يكون هناك الاهتمام بأمر خاص ليُحيّنّ قصي بن كلاب بشكل خاص من بين آبائنا وأجدادنا، وكان قصي رئيس قومنا، وإنه زاد من عظمة قريش ومجده وكان يَصدق أيضًا. ثم سنسأل قصي عنك أيضًا، هل محمد بن عبد الله رسول حقيقي من الله، ولا يمكن أن يكذب قصي، فإنه سيوضح أمر الواقع والوضع الحقيقي بشكل صحيح، ولا يمكن أن يترك الإنسان الشريف مثل قصي، أولاده في الظلام.

(4) يا محمد، أنت تضطر لتذهب إلى السوق بنفسك لأجل سد احتياجات الحياة. وتأتي بالبضائع والحبوب حاملًا إياها على ظهرك. كما أنت تبذل كل الجهد لأجل الحصول على لقمة العيش. ووضعك المالي أيضًا ليس بجيد، وإنّ منزلك قديم ومكسور، لا راحة فيه في الصيف ولا يكفي باحتياجات الشتاء. فلابد أن تقول لربك، أيها القادر المطلق الذي بعثني نبيًا! ابنِ لي قصرًا شامخًا، واجمع حولي الذهب والفضة، وأعطني حديقة لأجل ترويح نفسي. وأيضًا اسأل ربك أن يجعل معي ملكًا ليخبر الناس أنّ هذا الرجل صادق في ادعائه.

هذه المطالب كلها تعكس كافة أوهام قريش وقِصر نظرهم، وكانت ألوان وملذات الدنيا قد طغت على قلوبهم وعقولهم. إنهم اعتبروا القصور العالية وأكوامًا من الذهب والفضة والحدائق المورقة كل أمانيهم. لم يُدركوا قيمة الكرامة الإنسانية ولم يكونوا يعرفونها، ولو كانوا ملمين بها لَجَهِلوا بأن عزة النفس والكرامة والصدق وعظمة الإنسان ليست بحاجة إلى بهاء القصور ورونقها ونظرات الإعجاب بالمال والثروة والذهب والفضة. إنّ قياس عظمة الإنسان بالثروة والغنى لهو من أكبر الجهل

والحماقة، هذه من سنة الله أيضًا أنّ مصابيح الصدق والأمانة كانت تُضاء في البدء في البيوت المهدمة والأكواخ المسقوفة بالقش.

واستجابة لمطالب قريش هذه، نطق لسان النبوة بالتالي:

"إنني لم أُبعَث نبيًا لهذه الأمور. ولن أسأل ربي مثل هذا السؤال أبدًا، لقد بعثني الله تعالى مُبشّرًا برحمة الله ونذيرًا من عقابه. إن أطعتموني فهذا ينفعكم في الدين والدنيا، وإلا سأصبر وأنتظر قضاء الله".

لقد تبادلت قريش النظرات فيما بينهم بدهشة بعد هذا الجواب الذي صدر عن محمد صلوات الله وسلامه عليه. ثم قالوا بعد تفكير:

كم تزعم بكونك صادقًا، وكم تفخر بالله، فلماذا لا تأمر بإسقاط قطعةً من السماء علينا.

فأجاب النبي ردًا على ذلك: إنّ الله قد يفعل ذلك إن شاء.

فقالوا: لن نؤمن بك ما لم تفعل هذا.

فقال رسول الله: إنّ هذا الأمر بيد الله، إن شاء فيحدث.